

شبلي العيسمي

الرسالة العربية الخالدة

مفاهيمها - خصائصها - ميزاتها



منشورات الطليعة
2001



الرسالة العربية الخالدة
مفاهيمها - خصائصها - مميزاتها

قد يوحي تعبير الرسالة الخالدة بمعنى ميتافيزيقي أو غيبي ، اذا ما اخذت بعض الالفاظ والعبارات بمعانيها السطحية والظاهرية ، كما فعل بعضهم بنية حسنة او بقصد مقصود ، في حين ان الدراسة الجدية لشعار « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » تظهر انه لا يحمل هذه المعاني ولا ينطلق من نظرة شمولية تجريدية ، ولا من نظرية فلسفية مادية او روحية معينة ، بل انه مستوحى من معاناة حية ومن فهم واقعي لحاضر الأمة ولماضيها ولما يجب ان يكون عليه مستقبلها من تقدم وازدهار ، وذلك بالرغم مما في بعض التعابير الواردة في ادبياته من منطق ايماني تفاؤلي او ذاتي وثوقي . ويمكننا القول بصورة مبدئية ان صدر الشعار يتضمن الانطلاق من اعتبار التجزئة الراهنة في حياة العرب شيئاً طارئاً وعارضاً ، ومن فعل الاستعمار والتخلف وضمور الوعي القومي ، مما يستوجب النضال الثوري الواعي المنظم لبعث القومية العربية وتحقيق الوحدة بمضمونها الاشتراكي الديمقراطي . أما الشطر الثاني من الشعار فيعني بشكل عام ان يكون للأمة مثل عليا قومية وانسانية ، أو اهداف عظيمة سامية تنزع لتحقيقها وتكافح من اجلها ، كما يتضمن الثقة بامكاناتها الكامنة التي لو اتيح لها الانطلاق لحققت انبعاثها الشامل واسهمت في بناء الحضارة

الانسانية وتجديد قيمها الايجابية . غير ان هذا التعريف العام للرسالة العربية لا يقدم الوضوح المطلوب حول ماهيتها وسماتها ومراميها ومنطلقاتها العلمية ولا حول اداتها ومقوماتها وزمن تحقيقها ، مما يجعل الاجابة عن هذه النقاط الاساسية امراً ضرورياً اذا ما اردنا الوصول الى صورة واضحة وجلية عن مفهومها ومضمونها بعيداً عن التعددوالتعقيد . وهذا ما سنحاوله في الفصول القادمة . على انه لا بد من تعريف لغوي وأولي لمعنى الرسالة قبل الحديث عن سماتها وآفاقها .

فالرسالة لغةً من ارسل رسالة . وقد تعني ايضاً الرسول كما في قوله تعالى « أنّا رسول رب العالمين » وجاء في لسان العرب « ان الرسول سمي كذلك لأنه ذو رسول أي رسالة » . ونحن لو استبدلنا الحضارة بالرسالة والماجدة بالخالدة ، بحيث يصبح الشعار : أُمة عربية واحدة ذات حضارة ماجدة أي مجيدة ، فهل يبقى ما يدعو الى الغموض والاعتقاد بأن الشعار خيالي محض ؟ . على انه سيظهر لنا فيما بعد ان الرسالة اشمل واعمق من الحضارة وان لفظ الخالدة بمفهوم حزب البعث العربي الاشتراكي بعيد عن المفاهيم الدينية والفلسفية المجردة وعن كل ما هو ثابت وجامد .

عندما نقول ان للفرد رسالة يجب ان يؤديها تجاه نفسه وأمته ، فإننا نقصد واجباً أو دوراً ايجابياً ونافعاً في حياته ، ففي بيان القيادة القومية عن المؤتمر القومي الثالث ورد « ان

الموقف الثوري للحزب انطلق من نظرة للكون ترى لحياة الانسان مغزى وللشخص رسالة وترى ان حرية الانسان وفكره وفعاليته لها دور اساسي في بناء التاريخ » .[١]

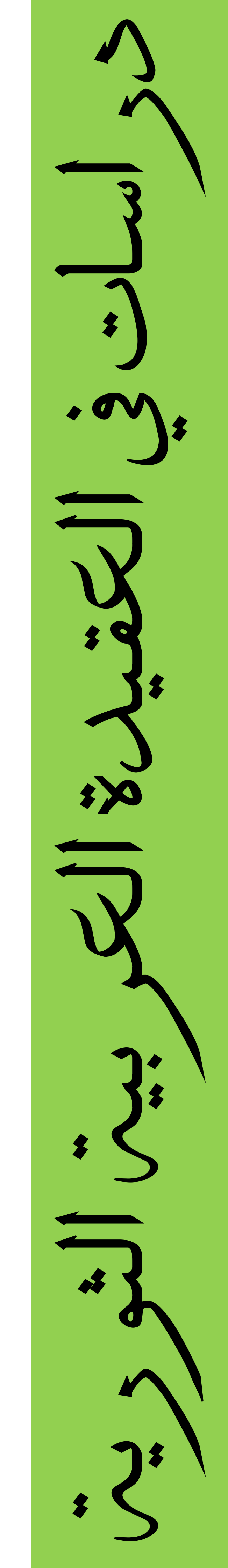
ولكن الرسالة بالنسبة للأمة شيء ملازم لها « ومن حق الأمة ان تطمح لبلوغها كما يحق لكل فرد ان يطمح الى البطولة » وبعد : فلئن كانت هذه المعاني العادية واللغوية والدينية لا تشمل الرسالة العربية ، فماذا عساها ان تكون ؟ من باب التبسيط والتشبيه يمكننا القول : كما ان لكل فرد في حياته اهدافاً وطموحات كأن يكون معلماً او طبيباً ناجحاً او مخترعاً لينتفع هو وينفع الآخرين بجهده وعمله ، فان لكل أمة اهدافها وطموحاتها كأن تضمن لنفسها الاستقلال والتقدم ورفع مستوى ابنائها والاسهام مع الأمم الاخرى بما يعزز الحياة الانسانية والتعاون بين الشعوب .

وهكذا فالرسالة وفق تعريف مبدئي موجز ، **هي دور العرب النضالي التاريخي الهادف الى تبديل جذري شامل لواقعهم الضعيف المتخلف واقامة المجتمع الاشتراكي الديمقراطي الموحد الراقي والقادر على الاسهام الفعال في تطوير الحضارة الانسانية وتجديد قيمها** . أما ان توسم بانها خالدة متجددة ، او عربية وانسانية ، او ان توصف بأنها روحية او مادية ، وان تكون هي الايمان او الحضارة أو ما شاكل ذلك . فإن هذا كله سيتضح فيما بعد . غير ان سماتها وآفاقها تتمثل بصورة عامة بكونها : عربية ، انسانية ، اخلاقية ، حضارية ، وخالدة متجددة .

١ ـ السمة العربية :

عندما نقول ان الأمة العربية ذات رسالة خالدة ، فمعنى ذلك ان هذه الرسالة تتسم بانها عربية ، وهنا لا بد من توضيح المفهوم الحقيقي لهذه السمة التي تبدو وكأنها بديهية . انها تكسب الرسالة هويتها وملامحها وتعطيها خصوصيتها التي تجعلها مختلفة عن غيرها بصفات معينة افرزتها تجربة الأمة العربية واوضاعها وحاجاتها الخاصة بها ، ضمن إطار التجربة الانسانية العامة . وقولنا بالرسالة العربية لا يعني اننا ننكر على الأمم الاخرى ان يكون لها رسالات . بل نرى ان كل ما اسهمت به أمة من الأمم على هذا الكوكب في مضمار الحضارة والتقدم البشري يعد معبراً عن رسالتها ومفصحاً عن جهودها وابداعها في صرح الحضارة البشرية ، بغض النظر عن حجمه ومداه . والرسالة تأخذ معناها الحقيقي عندما يكون لها طابع النزوع والطموح وترتفع الى المستوى الحضاري ـ والشمولي والانساني ، ومن هنا ورد قول الرفيق المؤسس « ان الشيوعية هي رسالة الأمة الروسية » .(٢)

والحق اننا لو اخذنا الفقرة التالية من برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي عن الثقافة الشيوعية لوجدنا فيها طابع الرسالة اذ ورد « ان الثقافة الشيوعية إذ تستوعب وتطور افضل ما خلفته الثقافة العالمية ، سوف تكون مرحلة عليا جديدة في التقدم الثقافي للبشرية ، وسوف تجسد تجدد وثراء الحياة



الروحية للمجتمع والمثل العليا السامية والنزعة الانسانية للعالم الجديد ، وسوف تكون ثقافة المجتمع اللاطبقي ثقافة كل الشعب ، كل البشرية». (٣)

ولعل في تبديل كلمة الرسالة بأخرى قريبة من معناها ، تظهر لنا المسألة على وجه آخر اكثر وضوحاً وايسر فهماً كأن نبدل الحضارة بالرسالة وعندئذ لا نستغرب لو قلنا الحضارة العربية او الفرنسية او الامريكية . . . ذلك لأن علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين « يقرون بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنيتها الخاصة حتى ان للأقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها». (٤)

وربما تصبح اكثر وضوحاً وتقبلاً لو استخدمنا لفظ الثقافة كان نقول الثقافة العربية او الفرنسية او الاسبانية ، لأن الثقافة هنا تشمل اللغة والأدب وهما اكثر العوامل المميزة للشعوب والمعبرة عن شخصيتها وخصائصها القومية . وانطلاقاً من مراعاة هذه الخصوصية القومية ، لم نكن لنجد ضيراً او خطأ في وصفنا للتجربة الاشتراكية التي نطمح لاقامتها في الوطن العربي بانها اشتراكية عربية ونعني بها الطريق العربي لتحقيق الاشتراكية ، مثلما نقول الاشتراكية اليوغسلافية أو الصينية او الكوبية ونحن نعني بها ما يلتصق بهذه التجارب من خصوصيات فرضتها ظروف تلك الشعوب وأوضاعها القومية الخاصة بها . هذا وتجدر الاشارة الى ان ما ظهر مؤخراً من

تشديد على الاستقلالية وتوكيد على الخصوصية الوطنية لدى الأحزاب الشيوعية في اوروبا الغربية وخارجها ، قد أكد صحة ما نذهب اليه حول وجود خصوصية لكل أُمة . على ان هذا لا يعني ان الأمة العربية تتميز او تنفرد بخصائص معينة واضحة لا تشاركها فيه الأمم الاخرى . واية محاولة لرسم صور متميزة معبرة عن حياتها في مراحل التاريخ المتعاقبة لن تخرج بنتيجة علمية واضحة بل سيبقى عنصر الاجتهاد الذاتي والتقدير الشخصي طاغياً على ما يمكن ان يقودنا الى الاطمئنان التام والوثوق العلمي . وسيدخلنا في متاهات من الجدل والمماحكات الفكرية والفلسفية . ولئن حملنا ذلك على الابتعاد عن هذا السبيل الشائك ، فانه لا يمنع من القيام في المستقبل بدراسات جادة وعلمية حول هذه المسائل الدقيقة من ذوي الاختصاص في الانتروبولوجيا ، أي تطور الشعوب وخصائصها . ومع ان اللغة العربية ليست مجرد اداة للتفاهم والتخاطب بل وعاء يستوعب تاريخ الانسان العربي وحضارته ، وتعد اكبر دليل على خصائص الأمة العربية وعظمتها ونضج حضارتها ، وفهم انسانها العربي ، الا انها لم تكن منعزلة عن اللغات والثقافات الاخرى ، بل كانت تتبادل معها الأخذ والعطاء . وبذلك يمكننا القول « ان دعوى النقاء اللغوي لا تختلف في خداعها عن دعوى النقاء العرقي » .(٥)

ان السؤ ال التالي لا يزال وارداً : اذا تعذر اعطاء الأمة ، اية أُمة ، سمات خاصة تنفرد بها من دون سواها افلا يصح ان

يكون لها سمات وملامح عامة الى حد ما تظهر من خلال بعض المظاهر والنشاطات البارزة لديها في المراحل المتعاقبة من التاريخ . كأن يقال على حد تعبير بعض الكتاب العرب ان اليونانيين اشتهروا بالفلسفة والهنود بالحساب والعرب بالشعر . أو ان الشعبين التركي والمغولي يغلب على حضارتيهما طابع القتال والقسوة والحرب بينما الشعوب الهندية والعربية واليونانية يغلب على حضاراتها طابع الابداع الفكري والفني والفلسفي والروحي . . . اوكأن يقال في الوقت الحاضر وبصورة عامة ان الامريكان يشتهرون ـ بالفسلفة البراغماتية والسوفييت بالمادية الماركسية والانكليز بالعقلية التجريبية ، والعرب بالشعر والاديان السماوية ؟ .

لا ريب في ان الحضارات او رسالات الأمم اذا صح التعبير ، تسير باتجاه التقارب والتشابك والاندماج كلما ازدادت وتطورت وسائل الاتصال والاختلاط بين الشعوب وكلما انتقلت وسائل الحضارة والتكنولوجيا الحديثة من شعب الى آخر وهذا ما يحصل بسرعة وعلى نطاق واسع ، في المجالات المادية والتكنولوجية ، وبنسبة اقل في العلوم الانسانية ، وبخاصة في اللغة والأدب والتقاليد والمعتقدات الروحية ، وهذه هي المجالات التي تكمن فيها بوضوح نسبي الملامح العامة لخصوصية الأمة وخصائصها واصالتها . وبتعبير وجيز : اذا كان من السهل على صعيد الافراد ان نجد سمات او صفات خاصة لزعيم مثل المهاتما غاندي تميزه بوضوح عن هتلر او موسوليني فلن

يكون مثل هذا التميز الواضح وارداً على صعيد الأمم ، غير ان هذا لا ينفي حقيقة وجود الخصوصية لكل امة وبروز بعض القضايا الخاصة بها .

وغني عن القول ان السمة العربية للرسالة والتي تعطيها هويتها وملامحها وتميزها عن سواها لا تتضمن الشعور بالتفوق والاستعلاء ، ولا تقود الى ـ التقوقع والجمود او التعصب والانغلاق القومي ، لأن الرسالة العربية واهداف حزب البعث العربي الاشتراكي ، تؤكد بإلحاح وباستمرار على محاربة كل اشكال التعصب القومي والعرقي والديني والاقليمي ، وعلى تعزيز الجوانب الانسانية والاشتراكية والاخلاقية ، وعلى ضرورة الانفتاح على الحركات التحررية العالمية ، والتفاعل معها وتقوية التعاون والاخاء والمساواة بين الشعوب .

ان المحاولات الرامية للافادة من بعض النصوص التاريخية والدينية في اعطاء تقييم خاص متميز للأمة العربية ، او في وصف الرسالة العربية بانها فريدة من نوعها ومتميزة عن غيرها ، لا تكتسب قيمتها وتأثيرها ما لم تكن مستندة الى تفسير علمي وبعيد عن الانزلاق وراء التميز والتفاخر والاستعلاء . ونسوق مثالاً على ذلك تفسير الآية الكريمة « كنتم خير أُمةٍ أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .(*)

(*) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

ولا شك ان التفسير الظاهري للآية يقود الى نوع من الخطأ والوهم عندما يفهم لفظ الأمة فيها بالمعنى المعروف للأمة في هذا العصر الحديث ، وهي في الآية لا تعني العرب وحدهم ، بل جماعة الدين الجديد أي المسلمين من عرب وغيرهم ، فضلاً عن ان للفظ الأمة معاني متعددة تتجاوز السبعة (٦)

صحيح ان قناعة أجيال معينة بهذا المعنى الظاهري للآية يشيع في نفوسها الثقة والاعتزاز بمكانة الأمة العربية ، ويدفعها بالتالي لأن تكون في مستوى أُمتها اخلاقاً وعملاً ، ويزيد من قدرتها على التضحية والنضال ، ولكن من الصحيح ايضاً ان وعي هذه الأجيال على خطأ التفسير فيما بعد،توقعها بنوع من الشك وخيبة الأمل ، فضلاً عن ان التفسير المشار اليه قد يدفع الى ضرب من الغرور والاعتقاد بالتميز غير المبرر علمياً ، وبخاصة في ظل الواقع العربي المتخلف الذي يكشف بشكل صارخ ، التناقض بينه وبين ذلك التفسير ، وهذا التناقض يدعو المرء الى الشك في جدارة الأمة العربية ومكانتها طالما هي لم ترتفع الى مستوى الأمم الراقية المعاصرة رغم انها « خير أُمة أُخرجت للناس » .

من المعروف ان التصرف على اساس التميز والاستعلاء باسم اسطورة « العرق الآري » كعرق مختار ، والتي استخدمها هتلر والنازية او الاعتقاد بشعب الله المختار لدى الصهيونية العنصرية او السلوك الامبريالي الذي جسدته بعض

الدول الاوروبية في القرن التاسع عشر تجاه الشعوب التي استعمرتها في آسيا وافريقيا باسم رسالة التمدين ونشر الحضارة الراقية بين الشعوب المتخلفة ، والتي حاول ريتشارد كبيلبج داعية الاستعمار الانكليزي تبريرها باسطورة عبء الرجل الابيض ورسالته التمدينية المزعومة ، تقول ان تصرفاً كهذا من أي امة او شعب وبأية ذريعة او لافتة ، يؤدي من حيث النتيجة لتخريب العلائق الانسانية الطبيعية ، ويشوه مبادىء الحق والعدل والمساواة بين الشعوب ، ويقود بالتالي الى الاندفاع نحو الظلم والاستغلال ويلتقي بشكل او آخر مع نزعة التمييز العنصري . يقول الرفيق المؤسس : « لسنا ندعي اننا افضل من غيرنا ، لكننا مختلفون عنهم وهذا الاختلاف هو الذي يجعلنا عرباً ويجعلهم غير عرب »(٧) .

إذا كان لكل أُمة رسالتها او دورها الحضاري ، وكان التمايز بين الرسالات مرفوضاً ، فهذا لا يعني انها متساوية في القيمة والاهمية ، ولئن كان من المتعذر ان نجد مقياساً واضحاً ودقيقاً تقاس به أهمية الأمة ورسالتها فان بالامكان ان نقيم رسالة الأمة بشكل عام من خلال ما قدمته وتقدمه الى الحضارة الانسانية من جهد ونتاج وابداع في مجالات العلم والأدب والفن والقيم الروحية والدينية ذات الأثر الايجابي في تعزيز روابط الاخاء والمحبة والتعاون بين الشعوب ، وسنوضح هذه المسألة عند الكلام عن السمة الانسانية .

بقي لنا من الحديث عن السمة العربية للرسالة ، ان نجيب على السؤال التالي : لماذا لا نقول برسالة مصرية وعراقية وسورية وجزائرية . . . الخ ؟

إن الرسالة ذات افق انساني وفيها معنى الشمول والعمق والاطلاق ولها بعد تاريخي وحضاري ، فالثورة الفرنسية بجذريتها واهدافها وشعاراتها في الحرية والعدالة والمساواة ، امتدت باثارها وتأثيرها الى خارج فرنسا فيمكننا ان نعتبرها جزءاً من رسالة الشعب الفرنسي وتجربته ، مثلما اصبحت الماركسية اللينينية أي الشيوعية رسالة الاتحاد السوفييتي وتجربته العملية بعد التطبيق ، وهكذا فإن كل حركة او ثورة تاريخية سواء أكانت بطابع ديني كالمسيحية والاسلام والبوذية ام بطابع التغيير الجذري الشامل لحياة الشعب الذي ظهرت فيه كالثورة الفرنسية أو الماركسية وتطبيقاتها في الاتحاد السوفييتي حيث كان لها آثار ونتائج تجاوزت حدود ذلك الشعب ، فان تلك الحركة او الثورة تعتبر جزءاً من رسالة الشعب الذي ظهرت فيه . ومن هنا فانه لا يصح ان نعتبر ما يحققه قطر عربي واحد كمصر او العراق او الجزائر في مضمار النهوض والتقدم والعلم هو في مستوى الرسالة بل يدخل في إطار الاهداف المرحلية والخطط الاستراتيجية وضمن الطموحات المشروعة باتجاه التقدم ، ويعتبر جدولاً يصب في النهر الكبير المتمثل في الأمة العربية كلها ، ومما لا شك فيه ان ثورة الابداع والارتفاع الى مستوى الرسالة تكون ضعيفة وهابطة في حالة التجزئة والتخلف

الراهنة ، بينما تغدو قوية وفعالة عند قيام المجتمع الاشتراكي الديمقراطي الموحد .

وإذا سلمنا بوجود الأمة العربية الواحدة ، وبان سكان الأقطار العربية هم قوام هذه الأمة ، فمعنى ذلك ان ما يقوم به الشعب في أي قطر عربي من اعمال بطولية ومن ابداع وتطور حضاري ، هو جزء من رسالة الأمة العربية وليس وقفاً عليه وحده رغم خصوصيته المحلية او القطرية .

إن اطلاق صفة الرسالة لكل قطر يعني القبول بان يكون له كيان خاص او شخصية منفصلة عن الأمة العربية ، مما يعزز الجانب الاقليمي في الوقت الذي ننطلق فيه من الايمان بأن التجزئة الراهنة شيء عرضي وطارىء ونتيجة للتخلف وضعف الوعي القومي ، وان الوحدة هي الشيء الطبيعي الذي يجب ان نعمل له ونناضل من اجله .

قد يكون قولنا برسالة مصرية او سورية أو تونسية وارداً وممكنا من الوجهة النظرية المجردة ، ولكنه مرفوض وغير وارد واقعياً بالنسبة لايديولوجية القومية العربية الهادفة لتحقيق الوحدة بمضمونها الديمقراطي الاشتراكي الانساني ، لأن الرسالة معبرة عن هذه الايديولوجية ، ولا يصح طرحها في اطار قطري حيث تفقد سحرها وتأثيرها وقدرتها على ان تأخذ ابعادها الانسانية الشاملة .

هذا ولو جاز لنا نظرياً ومن باب الفرضية ان نقول للقطر



الفلاني او للمدينة الفلانية رسالة تؤديها تجاه شعبها فهل هذا يجعل من الخطأ ان يكون للأمة العربية رسالة في مستوى ماضيها وطاقاتها العظيمة الدفينة ، وفي مستوى طموحاتها وتطلعاتها المشروعة لبناء مستقبل مزدهر مشرق ؟

وبتعبير وجيز : اذا نحن اعطينا مهمة الرسالة لكل قطر عربي ، فإن هذه المهمة تصبح هزيلة محدودة ، وتخرج عن المعنى المقصود من رسالة الأمة العربية ، ذات الافق التاريخي الانساني الحضاري الشامل ، أي انها عندئذ لا تكون رسالة .

٢ ـ السمة الانسانية :

السمة الثانية الاساسية للرسالة العربية هي ان تكون ذات افق واهداف انسانية . ورغم ان هذه السمة تمتزج بالسمة الاخلاقية كما في الحرية ذات القيمة الانسانية المطلقة الى جانب انها قيمة اخلاقية تعني احترام ارادة الآخرين وصون كرامتهم ، نقول رغم هذا ، فاننا سنفرد فقرة ثانية عن السمة الاخلاقية لأهميتها .

ولو رجعنا الى ما ورد عن الرسالة في المبدأ الثالث من دستور حزب البعث نجد انها « ترمي الى تجديد القيم الانسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم . ولهذا فان حزب البعث يعتبر الاستعمار وكل ما يمت اليه عملا اجرامياً يكافحه العرب بجميع الوسائل الممكنة ويسعون ضمن

امكاناتهم المادية والمعنوية الى مساعدة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها . كما يعتبر الحزب ان الانسانية مجموع متضامن في مصلحته مشترك في قيمه وحضارته ، فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ، ويمدون يد الاخاء الى الأمم الاخرى ، ويتعاونون معها على ايجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام والسمو في الخلق والروح» .

وفي المادة الثانية من سياسة الحزب الداخلية يؤكد على ان الرابطة القومية تكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والاقليمية ، بينما يقرر في المادة الأولى من سياسته الخارجية « ان رسالة العرب الخالدة ترمي الى المساهمة مع الأمم الاخرى في ايجاد عالم منسجم آمن يسير في سبيل التقدم الدائم » .(٨)

فإذا اضفنا الى هذا كله الاهتمام المركز الشديد على صيانة الحريات الفردية والالحاح على التقيد بجوهر الديمقراطية وتطبيق الاشتراكية بكل ما تعنيه من ازالة الظلم والاستغلال والفروق الطبقية وصولاً الى خلق الانسان العربي وتحقيق كامل شخصيته وانسانيته ، وكذلك التشديد على الجانب الاخلاقي

---

١) للاطلاع على المواد الواردة في دستور حزب البعث وذات الصلة بالاهداف الانسانية راجع المبدأ الثالث من المبادىء الاساسية والمادتين (٣ ثم ١٣) من المبادىء العامة . والمادة الثانية من سياسة الحزب الداخلية . والمادتين (١ ثم ٤) من سياسته الخارجية ، والمادتين (٤ ، ٥) من سياسته الاجتماعية) .

في العمل السياسي ، لأدركنا الايجابية والآفاق الانسانية والاخلاقية لمرامي الرسالة العربية ، وكيف انها اعمق واشمل من الحضارة ، ولأدركنا في الوقت نفسه الواقعية والمشروعية في طموح الأمة العربية ورسالتها للاسهام الجدي في تجديد القيم الانسانية التي شوهت كثيراً في ظل السياسة الدولية القائمة على تحكم الدول الكبرى القوية ، واستغلال الامبريالية لثروات الشعوب الصغيرة والضعيفة .

ففي مسألة الحرية مثلاً وهي اخطر ما يتصل بحياة الانسان ومصيره ، سعى الحزب في ادبياته الى تقديم مفهوم مختلف عن مفاهيم الانظمة الشيوعية والرأسمالية على حد سواء ، وبالشكل الذي يتلافى مواطن الضعف والسلبية التي برزت فيهما من خلال التطبيق كما انه رفض منطق الفئات الرجعية المتحجرة في نظرتها وفهمها لسنة التطور ومقتضياته . وفي هذا الصدد ورد في بعض المنطلقات النظرية للحزب ان الحزب اسهم في فضح المفهوم البورجوازي ـ الاقطاعي للحرية . . . وكان يستنكر دوماً مظاهر خرق المشروعية الاشتراكية والتضييق على حرية الجماهير الشعبية والتسلط البيروقراطي عليها . هذه المظاهر التي عانتها بعض التجارب الاشتراكية الثورية في العالم .

وعلى هذا الاساس فان حزب البعث العربي الاشتراكي كان يؤكد دوماً ضرورة تلازم الحرية والعدل الاجتماعي .(٩) ويقول الرفيق المؤسس : « كانت حركتنا اول من نادى بالحياد وربطته

بفلسفتها ، فلسفة القومية التي ترفض النظام الرأسمالي والديمقراطية الغربية التي انجبت الرأسمالية وترفض الشيوعية كنظام ، وتترك المجال حراً لظهور الثورة الحقيقية التي لا تعسف فيها ولا اصطناع ، والتي تنسجم فيها الوسيلة مع الغاية . إذ أن ـ الشيوعية لم تستطع المحافظة على حرية الانسان » . (١٠)

هذه السمات الانسانية الاخلاقية الشاملة ، هي التي تعطي للرسالة ماهيتها وكنهها وتميزها عن الحركات السياسية والنهضات العادية للشعوب .لم يقف الحزب عند تدوين هذه المبادىء في دستوره بل كان يعمل على توضيحها وتعميقها واعطائها ابعاداً جديدة من خلال التوعية والتثقيف والممارسة النضالية وبهذا الصدد نطالع ما يلي : « ان معركة العرب معركة ايجابية بكل معنى الكلمة ، وهي لأنفسهم وللعالم ، فبمقدار ما يتحررون يحررون العالم . . . وهي اذن معركة الحضارة والقيم الانسانية والمستقبل ، وان طموحنا في اعماقه طموح ايجابي بناء ، وهو ان نعمل وان نبدع ونسترجع من جديد تجاوبنا الصادق مع الحياة وان نساهم في بناء الحضارة واخصاب القيم الانسانية ، وفي الدفاع عنها وفي تجسيدها تجسيداً صادقاً في سلوكنا» . (١١)

وتجدر الاشارة الى ان ثمة جوانب اخرى من فكر الحزب وممارسته تتجسد فيها السمة الانسانية منها ، تشديده على ان يكون للوحدة العربية محتوى ديمقراطي اشتراكي ، وتوكيده على

تقديس حرية الفرد ، ورفضه لأي مبدأ يتيح هدر كرامته واذابة شخصيته في سبيل المجتمع ، او بدافع الحرص على مصلحة الثورة او لأي سبب آخر بالاضافة الى ادانته بشدة للاساليب غير الشعبية المعتمدة على الانقلابات العسكرية والاغتيالات السياسية . (١٢)

وفي معرض توضيحه لشعار الحياد الايجابي وعدم الانحياز الذي بدأ بطرحه منذ عام **١٩٤٧** نلاحظ انه يؤكد في نشراته وادبياته على التعايش السلمي بين الشعوب والأمم على اساس من التعاون والاحترام المتبادل ، ويقاوم سياسة ـ الاحلاف العسكرية التي تستهدف استقطاب الشعوب وجرها الى حلبة الصراع والحرب الباردة التي قد تتحول الى حرب حامية لا تبقي ولا تذر بل تجعل الحضارة البشرية اثراً بعد عين .

لقد سبقت الاشارة الى ان للأمم رسالات تؤديها ، وان للماركسية رسالة عندما تسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية وازالة الاستغلال الطبقي بالقضاء على البورجوازية والرأسمالية في العالم كله ، وعندما تطمح لتحقيق المساواة والتعاون والاخاء بين الشعوب ، ولكنها انطلقت من الاممية وتجاوزت القومية في حين ان ـ البعث العربي الاشتراكي انطلق من الايمان بالقومية ذات المضمون الانساني الاشتراكي الديمقراطي ، واعتبرها المنطلق الطبيعي والأسلم من اجل الوصول الى الاهداف

الكبرى في خدمة الانسانية وتقدمها ، ثم جاءت الوقائع الحية والتجارب العملية لتؤكد صحة ما ذهب اليه من خلال الطابع القومي الذي استمر بالظهور والتأثير في التجارب الاشتراكية المختلفة ، مع إلحاح معظم الاحزاب الشيوعية العالمية على ضرورة التمسك بالاستقلالية والخصوصية القومية لكل

شعب ، وهكذا فان الطريق الى الأممية أي الانسجام والتعاون التام بين الأمم يتم عبر القومية الانسانية بأسرع وانجع مما يتم عبر الماركسية التي تتخطى هذه القومية وتقفز من فوقها .

كل الأمم قويها وضعيفها ، في هذا العصر تسعى لتعزيز بعض المبادىء السياسية العادلة والاخلاقية التي تنظم العلائق فيما بينها على اساس يحقق الأمن والسلام والعدل والمصالح الانسانية المشتركة ، ولعل في اقامة عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى ثم هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، ما يعبر عن هذا السعي من جهة ، كما يعبر عن الحاجة الى تعزيز هذه القيم الايجابية من جهة ثانية .(*)

ولقد دلت التجربة على انه كلما نهضت الشعوب النامية

(*) من اغراض العصبة تقييد الحرب وتأمين السلام وتنمية التعاون الانساني . . . ومن اهداف ومبادىء هيئة الأمم المتحدة المساواة في السيادة بين اعضائها وفض المنازعات بالوسائل السلمية وتشجيع احترام حقوق الانسان والحريات الاساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس او اللغة او الدين المادة ٧٦ ف ج - (العلاقات السياسية الدولية - الدكتور راشد براوي ١٩٧٢ ص ٥٠ ، ٩٩) .

وازدادت قوتها ، ساعدت في تخفيف حدة الاستقطاب والتسلط من الدول الكبرى التي تحتكر الاسلحة النووية الاستراتيجية وبعض وسائل التكنولوجيا المتفوقة ، ومن هنا يصح ايماننا بانه كلما كانت الأمة العربية قوية راقية ، كانت اقدر على خدمة الانسانية والاسهام الفعال في بناء الحضارة البشرية .

ولعل اسوأ مرحلة تمر فيها الشعوب النامية والضعيفة هي يوم تتفق الدول الكبرى وتعمد لاقتسام النفوذ في غياب الحد الأدنى من ايمانها بالقيم الانسانية والاخلاقية ، غير ان ما يدعو الى التفاؤل بالمستقبل هو بقاء حيز غير قليل من التناقض في المصالح بين هذه الدول الكبرى من جهة ثم تنامي الضغط والتأثير للرأي العام العالمي باتجاه المحافظة على القيم الانسانية الايجابية وتعزيزها من جهة ثانية .

لقد انطلقت الثورة الامريكية في القرن الثامن عشر ضد الاستعمار البريطاني وفي سبيل الحرية ولكن امريكا في هذه الايام ، لا تأبه لمبادىء ثورتها وقيمها ، بل تمثل قمة الغطرسة والاستغلال الامبريالي . والثورة الفرنسية انطلقت من اجل الحرية والعدالة والمساواة ، ولكن فرنسا في القرن التاسع عشر والعشرين مارست الاستعمار على ابشع صوره واشكاله . فهل هذا يعني ان الأمة العربية عندما تحقق وحدتها وتستعيد قوتها وطاقاتها ستتخلى عن رسالتها الانسانية الحضارية الاخلاقية ،

وما هي ضمانة استمرار رسالتها في المستوى الايجابي . ؟

صحيح ان في ماضي الأمة العربية وتراثها المجيد الحافل بالقيم الروحية والايجابية وكذلك في الالام العميقة التي تعانيها في العصر الحاضر ، ما يشكل نوعاً ولو بسيطاً من الضمانات أو بالأصح يشكل مؤشراً يطمئن لامكانية توفرها في المستقبل ، ولكن الضمانة الحقيقية والاساسية تكمن في جعل الايديولوجية العلمية الانسانية الاخلاقية راسخة في اعماق النفوس ، وتعميمها على اوسع نطاق ممكن ، مع الاستمرار في تعميقها وتأصيلها حتى تصبح بارزة في السلوك والمواقف والممارسة ، وتغدو حالة عادية وطبيعية في حياة الفرد ، وبذلك يبقى في مستوى رسالته وجديرا بحملها وتطبيقها . يقول الرفيق المؤسس :« نريد أمة حرة كريمة تؤمن بالانسانية والقيم العليا ، لها رسالة خيرة ، فلا يمكن ان نتجاهل هذه القيم اليوم ونرجىء تطبيقها الى حين تحقيق اهدافنا بعد عشرات السنين . واذا كانت هذه القيم لم تتجسد في نفوسنا واعمالنا منذ بدأنا النضال ووعينا هذه القيم ، فاننا لن نحققها في يوم من الايام بالمستقبل» . (١٣)

وبتعبير وجيز : ان الرسالة العربية اذا هبطت عن مستواها الانساني الاخلاقي وطابعها الشمولي المطلق ، فقدت كنهها ومعناها ، بل ومبرر تسميتها بالرسالة . ولن يكون قادراً على حملها وتحقيقها في الحاضر والمستقبل ، إلا جيل عربي جديد يتسم بالعلمية والثورية ، مراع لأهداف أمته

ورسالتها ، واثق بها وبنفسه ، دائم الاستعداد للتضحية والعطاء باخلاق الثوريين وباندفاع المؤمنين بضرورة انتصار الحق .

٣ ـ السمة الاخلاقية :

نلاحظ في ادبيات حزب البعث وبخاصة ما يتصل بالرسالة إلحاحاً على ضرورة الممارسة الحية للقيم الانسانية المطلقة ، كالحق والخير والعدل ، كما نلاحظ عند الحديث عن الجيل العربي الجديد وفكرة الانقلاب ، تشديداً على الجوانب الروحية والقيم الاخلاقية الفاعلة والمؤثرة في حياة الانسان وسلوكه كالصبر ومجاهدة النفس ومقاومة النفعية والانانية والانتهازية والاستغلال والظلم والعنصرية والطائفية والاقليمية . . . الخ .

ومما لا شك فيه ان هذه القيم الاخلاقية عندما تدخل في حياة الانسان تنبعث فيها الحياة بعد ان تكون مجرد كلمات والفاظ وعندما تتأصل في نفس المناضل وتترسخ في اعماقه تصبح ممارسته لها أمراً طبيعياً وعادياً لا تكلف فيه ولا اصطناع ويصعب عليه بعد تسلمه السلطة ومقاليد الامور ان يزوغ عنها ويتنكر لها كما لو لم يكن من المؤمنين بها والممارسين لها . والحق « انه اذا لم يكن الحزب منذ بدئه في طريق النضال قادراً على تحقيق هذه الفضائل التي يدعو الشعب اليها ويسعى الى تحقيقها في الأمة . فكيف يمكنه ان يحققها فيما بعد ؟ (١٤)

اما في النضال والعمل السياسي فقد اكد الحزب على مبدأ الالتزام بالحق والحقيقة ومصارحة الشعب ، ورفض الاسلوب الماكيافيلي الذي يتلخص في « ان الغاية تبرر الواسطة » وهو الاسلوب الذي درج عليه واتقنه الحكام والساسة التقليديون وافادوا منه في خداع الجماهير وتضليلها . والحزب في رفضه الماكيافيلية وتأكيده على الناحية الاخلاقية لم يكن منطلقاً من نظرة دينية . أو فلسفية نظرية عن الاخلاق بل من ادراك حي لمنطق السياسيين وتعاملهم المبني على المصالح من دون القيم الانسانية والاخلاقية . ومن معرفة لواقع المجتمع العربي ولامراضه ولعوامل تخلفه وجموده فاسلوب الكذب والغش والتضليل الذي يمارسه الساسة التقليديون الانتهازيون ، لا يقاوم ويُقضى عليه الا بالصدق والمصارحة واحترام الحقيقة ،

لان الحقيقة اخلاقية وثورية كما ورد في مقررات المؤتمر القومي السادس للحزب ، والجيل القديم الرجعي المتحجر لا ينفيه ويزيح قياداته وتأثيراته ، إلا جيل جديد تقدمي متحرر . واخلاق الفتور واللا مبالاة والفوضى والضياع لا تزول إلا بقيام جيل ثوري يشعر بالمسؤولية ويؤمن بضرورة النضال والتضحية في سبيل اهدافه القومية الانسانية ، ضمن إطار من الوعي والتنظيم ، وبما ان النضال يهذب اخلاق الانسان ويصقل وعيه ومواهبه فينمي لديه صفات الصبر والرجولة واحترام الحق والحقيقة ، والشعور بالمسؤولية ، والتعود على التضحية والبذل وحب الوطن والعمل وخدمة المجموع ، فانه

لا يبقى مجرد وسيلة لتحقيق الاهداف المذكورة بل يصبح ايضاً غاية ، اي جزءاً من الرسالة ويدخل في صلبها طالما انها تهدف الى تهذيب الخلق وتكوين الشروط والمؤهلات الضرورية للانسان الانقلابي المنتج الفعال ، الانسان الحر الاشتراكي الوحدوي ذي الاخلاق الثورية .

واخلاق المجاملات الكاذبة والانتهازية والمداهنة والتردد والاحجام عن قول الحقيقة ، وفقدان الجرأة في قول الحق ، لا تقاوم وتنتفي الا بأخلاق مناقضة لها تستند الى الصراحة والصدق والجرأة والحزم والتفاني في خدمة القضايا العامة .

والاخلاق البورجوازية التي لا ترى في الاستغلال والظلم الطبقي ما يستثير مشاعر الوجدان والضمير وما يستوجب التبديل والتغيير ، لن تزول وتنتفي ما لم تَنمُ الاخلاق الاشتراكية التي تأخذ بمبادىء العدل والمساواة وتكافؤ الفرص ، وتقاوم كل تمييز عنصري او طبقي .

واذا اعتبرنا الديمقراطية في جوهرها هي الايمان بالحرية وبالجماهير ودورها ، او بانها نفي للفردية التي تدعي احتكار الحق والصواب ، وتمارس القهر والارهاب ، وتعتمد الفئات الانتهازية والبيروقراطية بدلاً من القيادة الجماعية وتوسيع المشاركة تعميقاً للرأي وانضاجاً له واندفاعاً من اجله،نقول اذا اعتبرنا الديمقراطية كذلك ، فهي اذن اسلوب اخلاقي وممارسة حية ، وقيمة انسانية مطلوبة :وليست مجرد دعاية وادعاء او كلام

وعظي يلقى في الخطب او يدون في الدساتير . ومن هنا نستطيع ان نفهم دوافع حزب البعث في تركيزه الشديد على تقديس حرية الفرد وربط تقدم الأمة بمدى تمتعه بالحرية السياسية والاجتماعية .

ونفهم ايضاً قول الرفيق المؤسس :« بان الحرية منبع الفضائل وهي التي تميز الشعب الحي .[١٥] وبانها اساس هذه الحياة وجوهرها ومعناها ، والحرية لا تتجزأ فلا يمكن ان نثور على الاستعمار الاجنبي وأن نسكت على الاستبداد الوطني . . . انها لن تدخل حياتنا ما لم نرخص الحياة في سبيلها ولن نفرض على الحاكمين احترامها ونشعر الشعب بقيمتها وقدسيتها اذا لم يكن ايماننا بها جهاداً ودفاعنا عنها استشهاداً»[١٦] وهذا يعني انه لا يكفي ان يعي المواطن عقلياً وذهنياً اهمية الديمقراطية وفائدتها ، وان يكون قادراً على التحدث عنها ، بل لا بد من تعميق ايمانه بها الى الحد الذي يدفعه الى ممارستها والدفاع عنها ، ولكننا اذا اردنا ان نضاعف من قدرته على حمايتها والتضحية في سبيلها ، فلا بد من ان نسلحه بالجرأة في قول الحق ، والتحلي باخلاق الرجال الذين لا يخشون في الحق لومة لائم . ولئن كانت المدارس تضطلع بهذا الدور فانه دور عادي يفتقر الى العمق والتركيز ، ويأخذ في الغالب ، طابع النصح والارشاد ، وربما نُقل ايضا بروح فاترة باردة لا تهز النفس ولا تغوص الى اعماقها . في حين ان الحزب الثوري التاريخي صاحب الرسالة ، يلح على تحقيق هذه القيم الاخلاقية ، ويطالب بتطبيقها ، ويمارس المراقبة والمحاسبة ، واسلوب

النقد والنقد الذاتي ، عندما تظهر بوادر الاهمال والتقصير . وهكذا فان الايمان باخلاق الرسالة لا يكون مجرد ايمان باهدافها ومراميها فحسب ، بل تجسيد لها بالوعي والنضال والعطاء والسلوك الذي يقدم للمواطنين الانموذج والقدوة والمثل الذي يُحتذى بممارسة الاخلاق النضالية بروح المحبة والبناء بعيداً عن بواعث الحقد والسلبية . وتكتسب هذه المسألة اهمية خاصة ، اذا ما علمنا ان الاكثرية الساحقة من المواطنين لا تفهم الأهداف والمبادىء السامية ، إلا من خلال الذين ينادون بها ويدعون اليها ، أي من خلال سلوكهم ومواقفهم العملية ، ومدى انسجامهم مع هذه المبادىء والأهداف .اجل ليس المهم ان نقرر فائدة الاخلاق النضالية ، اخلاق الرسالة العربية ، وان نؤشر الحاجة اليها ، ونطالب بها باسلوب الواعظ المرشد ، كما يفعل رجال الدين او المصلحون المبشرون او الساسة المخادعون ، بل المهم هو ان نستنبط الوسائل العملية والفعالة لغرس هذه الاخلاق في اعماق النفوس وحمل المواطن على الايمان بضرورتها لتقدمه ولانبعاث أُمته ، ومن ثم حمله بقناعة وطواعية ، على ممارستها والتقيد بها في حياته وسلوكه وتصرفاته وتقديم اغلى التضحيات في سبيل الدفاع عنها . إذ ليس ما هو اشد خطراً عليها وايذائها من قيام المفارقة بين القول والعمل او التناقض بين المبدأ والتطبيق . ومن هنا يصح قولنا ، لا اشتراكية بلا اشتراكيين ، ولا وحدة بلا وحدويين ولا أُمة حرة بلا احرار ، كما انه لا ثوريين بلا اخلاق ومؤهلات ثورية ،

ولا معنى لاخلاق مجردة اذا لم تتجسد في سلوك الافراد ومواقفهم .

إن الأمة العربية ، رغم ضعفها وتجزئتها في هذه المرحلة التاريخية ، تؤدي رسالتها تجاه نفسها وتجاه الانسانية كلها ، بنضالها وبما تقدمه من تضحيات ضد القوى الامبريالية العالمية والصهيونية والعنصرية وضد الانظمة الرجعية ، واوضاع التجزئة والتخلف وفساد القيم الخلقية والانسانية . ولئن كان دورها هذا ضعيفاً في الوقت الحاضر بسبب من ضعفها ، فان له قيمة اساسية وهامة ، من خلال ما ينطوي عليه من تعزيز للقيم الايجابية التي تطمح البشرية لبعثها وتجديدها بعد ان اصابها الكثير من التشويه والتزييف ، حيث لا مكان للحق مع طغيان القوة ولا للعدل وجود مع سيادة الظلم والاستغلال ، ولا مجال للصدق والمحبة والتعاون المخلص مع اتساع نطاق الكذب والتنافر والانانية القومية . اليست الانسانية في هذا العصر الذي طغت فيه حضارة الالة والمادة ، بحاجة الى تجديد هذه القيم الايجابية وبعثها اكثر من حاجتها الى التقدم والنمو في المجالات التكنولوجية ؟ او بتعبير آخر ، أليست الحاجة ماسة لاقامة التوازن والانسجام بين القيم الروحية والاخلاقية الانسانية من جهة ، وبين التقدم المادي ـ والعلمي من جهة ثانية ؟ .

صحيح ان قدرة الأمة ، أية أمة ، وكذلك عبقريتها في

اداء رسالتها . تظهران بوضوح في حجم الاختراعات والاكتشافات العلمية ، وفيما تقدمه وتبدعه في ميادين الثقافة والعلم والفلسفة والاجتماع ، وفي كل ما من شأنه ان يفيد في تطوير البشرية . ولكن هل الاختراعات العلمية العسكرية التدميرية كالقنابل الذرية والنيوترونية والجرثومية ، دليل على تقدم الأمم التي تنتجها وعلى ارتفاع في مستوى رسالاتها ، أم انه دليل على الانانية وحب التسلط ومن ثم على هبوط في جوهر الرسالة ومستواها ؟ التقدم العلمي والتكنولوجية يعبر عن ارتفاع مستوى الحضارة ، ولكنه لن يكون معبراً عن وجود الرسالة اذا لم يكن نافعاً ومفيداً للبشرية . أي اذا لم يستند الى قيم ايجابية اخلاقية . ولو اخذنا على سبيل المثال الأمة الامريكية ،

وهي اقوى الأمم واكثرها غنى ورقياً ، ثم تساءلنا عن جوهر رسالتها ، أي عما تؤديه تجاه الانسانية من خدمات ايجابية فما عسانا واجدين ؟ . ان النجاح العظيم الذي نلحظه لدى الأمة الامريكية في ميادين العلم والتكنولوجيا ، وما لهذا النجاح من تأثير على تقدم الحضارة البشرية في مختلف نواحي الحياة ، يحب ألاَّ ينسينا جوانبها السلبية المتمثلة في تسخير هذا التفوق ، لمصلحة تفوقها العسكري الذي يقودها الى التحكم بمصائر الشعوب ، وفرض سيطرتها على الأمم الاخرى ، حتى غدت عميدة الامبريالية وحامية للأنظمة الرجعية والعنصرية في العالم كله . فضلاً عن انها تقف وراء معظم الانقلابات العسكرية في دول العالم الثالث ، وما زالت تُغدق الدعم

المادي والسياسي والعسكري الضخم للكيان الصهيوني العنصري التوسعي ، وتقف معه وحدها في كثير من الاحيان ، غير عابئة بالرأي العام العالمي وبقواعد الحق والعدل ، ليظل قادراً على ممارسة العدوان على الأمة العربية ، وتخريب وحدتها وشل تقدمها ، وذلك كله من اجل ان تفرض امريكا سيطرتها واستغلالها لثروات الوطن العربي وبخاصة النفطية منها . ومن هنا فان الجوانب السلبية في رسالة الأمة الامريكية تبرز بوضوح في سلوك حكامها المعبر عن نزعة الاستعلاء والتحكم والاستغلال للشعوب الصغيرة ، وفي مجمل سياستهم الامبريالية التي يهون امامها ويكاد لا يذكر ، ما تقدمه من مساعدات للدول الفقيرة ، وكذلك حملة الرئيس كارتر في الدفاع عن حقوق الانسان ، وهي حملة في حقيقتها وجوهرها ذات دوافع سياسية ومصلحية اكثر منها اخلاقية وانسانية مجردة .

ذلك لأن من يدافع بحق وحقيقة عن حقوق الانسان ، ليس رئيس اكبر دولة امبريالية تدعم الانظمة الرجعية والعسكرية والعنصرية في العالم ، ويأتي ما تقدمه من مساعدات للدول الفقيرة في المرتبة العاشرة بالنسبة لما قدمه غيرها ، رغم انها اغنى دولة على ظهر هذا الكوكب .(*)

وبعد فان القوة والعلم والتكنولوجيا المتقدمة تغدو مفيدة

(*) ورد في اذاعة صوت امريكا شباط ١٩٧٨ ان تسع دول تسبق امريكا في نسبة ما تقدمه من مساعدات للدول الفقيرة وان ما تقدمه امريكا من المساعدات لا يزال اقل من واحد بالمئة من ميزانيتها واقل من سبعة عشرة مرة مما تنفقه على قواتها العسكرية .

وخيرة بأيدٍ صالحة ومحبة للخير ومؤمنة بالتعاون الانساني ، بينما تصبح ضارة مؤذية ، اذا امتلكتها فئة حاكمة لا تؤمن بغير المصلحة القومية الضيقة ، وبالاسلوب المناور المخادع في التعامل مع الشعوب الاخرى وتتنكر للقواعد الانسانية والاخلاقية .

من البديهي انه لو كان التعامل بين الأمم والدول قائماً على أساس الحق والعدل والمساواة والاحترام المتبادل ، لما بقيت المنازعات والحروب ، ولما استمر ظلم القوي واستغلاله للضعيف ، ولما ظلت القوة هي العامل المرجح ان لم نقل المتحكم في تقرير الامور . صحيح ان الحق في حد ذاته قوة مثلما ان الفكر قوة ، ولكننا نلاحظ من الناحية الواقعية والعملية ان من يمتلك القوة العسكرية هو صاحب الرأي النافذ ولو كان على غير حق ومن غير منطق . وإذا كان من الصحيح اننا اقوياء بقدر ما نملك من حرية وحق ، فانه لا يزال من الصحيح ايضاً اننا في هذا العصر احرار ونصون حقنا بقدر ما نملك من قوة وبأس ، وعلى شعوب العالم المحبة للسلام والعدل ان تناضل من اجل الوصول الى اليوم الذي يصبح فيه الحق والعدل هما الفيصل والمنظم للعلائق الدولية وليست القوة العسكرية والمادية .

٤ ـ السمة الحضارية :

عندما نعطي الرسالة سمة حضارية ، فنقصد بذلك المعنى العام المجرد للحضارة او جملة مظاهر التقدم الفكري والمادي

التي تنتقل من جيل الى جيل . على ان الحضارة المتطورة تتضمن ايضاً بعداً تاريخياً ، لأن بناءها لا يتم آنياً ، وبمرحلة زمنية محددة ، بل قد يتطلب مراحل متعددة واجيالاً كثيرة متعاقبة ، هذا بالاضافة الى انها تعبر عن الاتصال والاستمرارية في التاريخ الحضاري للأمة ، لأن التاريخ سياق متصل .

وبتعبير آخر إذا كانت سمة الحضارة تعطي للرسالة معنى التقدم والرقي ، فان السمة التاريخية تعطيها معنى الامتداد والعمق والسياق المتصل ، وفي هذا ايضاً معنى الخلود النسبي باعتبار ان ما يبقى حياً ومفيداً على امتداد التاريخ الطويل يحمل معنى الخلود .

وفي مقال عن الجيل العربي الجديد يقول الرفيق المؤسس : « العمل ليس عادياً آنياً بل تاريخياً ، وليس سياسة بل رسالة ، لأنه مكلف بتصحيح انحراف عصور عديدة ماضية ، وتهيئة انبعاث للأمة يؤتي اكله في - عصور عديدة مقبلة » . (١٧) ويقول ايضاً « ان الخطوط التي رسمناها لقوميتنا العربية لا تكتفي بالروابط الحقوقية بين الأفراد وانما تجعل في وجود الأمة رسالة تاريخية وامانة في عنقها تحيا حياتها وتجربتها بصدق وتخلص للقيم والعقل ، وتقدم للانسانية خير ما عندها . وهذا ما جعلنا نرجع الى تراثنا الحضاري التاريخي وننظر اليه نظرة جديدة ، ففي حياة العرب تجربة ضخمة ورسالة سامية » . (١٨)

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان العودة الى تراث العرب الحضاري التاريخي لا تعني العودة الى الماضي من اجل التقيد بتعاليمه وصيغه وقيمه الظرفية ، بل من اجل ان نفهمه بنظرة جديدة ، أي علمية حية تمكننا من معرفة ما فيه من نواح سلبية وايجابية ، تفيدنا في توضيح الطريق وتعزيز النضال . ونستطيع القول انه لا قيمة لعودتنا الى الماضي إلا بالقدر الذي يسعفنا في بناء الحاضر والمستقبل .

وارتفاع الأمة العربية الى مستوى تاريخي حضاري رفيع في هذا العصر أي الى مستوى الرسالة التي تطمح الى تحقيقها ، لا يكون إلا بالتوجه الدائم نحو المستقبل ، وذلك بتكوين الانسان العربي الجديد ، وهو الانسان المناضل العلمي الثوري الواعي المنظم الدؤوب ، اوكما ورد في دستور الحزب « بالتربية الرامية الى خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها،آخذ بالتفكير العلمي ، طليق من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية ، مشبع بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الانسانية » .

إن ما يجب تلافيه من الدعوة للاهتمام بالتراث، هو منع القارىء من الانبهار بالماضي وتقديسه ، او الانشداد الى مفاهيمه وتعاليمه والارتباط بها وتقديم النقل على العقل كما فعل ابن حنبل في الوقت الذي نحن احوج ما نكون فيه الى اكبر قدر من الانعتاق والتحرر الفكري والى الأخذ بمستلزمات العصر ووسائله .

إن الفائدة لا تكمن بوقائع الماضي ، ولا بمضمون التراث ، لأنه ككل تراث ، يقوم على التناقضات والافكار المتعارضة والقضايا السلبية والايجابية ، وانما تكمن الفائدة في طريقة فهمنا له ومنهج نظرتنا اليه . فاذا كانت هذه النظرة مرتكزه الى الايمان بالتطور والتحرر وبالاسلوب العلمي العقلاني ، فلا خوف عندئذ من الاهتمام بالتراث والتوسع في الاطلاع على مضامينه واحداثه ووقائعه ، لأن هذا الاطلاع وفق النظرة المذكورة تحمل القارىء على الاهتمام بفلسفة ابن رشد مثلاً وابرازها والتأثر بها اكثر من اهتمامه بفلسفة الغزالي ، لأن الأول يمثل ثورة العقل العربي الاسلامي ، ونحن في هذا العصر الذي ننشد فيه الانبعاث الشامل لجميع مناحي الحياة بحاجة ماسة الى مثل هذه الثورة ، ولكن بمنطق العصر وفي مستواه .

إن الغرض من الاهتمام بالتراث والمعاصرة معاً هو تدعيم عوامل التطور والتقدم.وبعبارة اخرى لا يجوز ان نصطنع التعارض بين التراث والمعاصرة ، ويجب ان نجعل من مسألة التطلع الى المستقبل منارة تهدينا الى الموقف السليم ، وهو ان الاهتمام بالتراث والمعاصرة يستهدف قبل كل شيء وأولاً واخيراً بناء الحاضر والمستقبل الافضل . ذلك لأن التراث اذا كان مفيداً لتوضيح شخصية الأمة ووجودها فان المعاصرة عامل فعال في تطويرها وايجادها . عندما يقول الرفيق المؤسس ان الأمة العربية « تطلب ان ترتقي الى ما يساويها بماضيها المجيد

وبحاضر الأمم الاخرى »[١٩] فإن جوهر المعنى المقصود من هذه العبارة هو ان العرب بالماضي (في العصور الوسطى مثلاً) كانوا على درجة كبيرة من الرقي والتقدم قياساً الى شعوب اوروبا في تلك الحقبة من الزمن ، بينما اصبح العرب في الوقت الحاضر متخلفين حضارياً قياساً لشعوب اوروبا الراقية . فالمساواة تعني بوضوح تام المعنى العام للرقي الحضاري ، ولا تعني العودة الى الحضارة العربية القديمة ، كما لا تعني النقل المصطنع والتقليد الجامد للحضارات الراقية المعاصرة . فكما ان الاوروبيين التقدميين المتحررين في العصور الوسطى كانوا منفتحين على الحضارة العربية ويغرفون منها ، بل ويتعرض بعضهم للاذى جزاء تبنيه اراء بعض الفلاسفة العرب كإبن رشد ، فانه لا ضير لنا فقط في هذه الايام من الانفتاح على أي فكر علمي ثوري في اية بقعة من العالم والافادة منه .

هذا ومن الجدير بالذكر ان حزب البعث ومن منطلق الثقة بالنفس يَحُثُ باستمرار على الانفتاح والتفاعل والافادة من كل مظاهر التطور والتقدم في ميادين الحياة المختلفة ، وبخاصة ميادين العلم والتكنولوجيا الحديثة ، وهذا امر طبيعي كما فعل اجدادنا بالنسبة للانفتاح على الحضارة اليونانية ، وكما فعلت اوروبا بالنسبة للحضارة العربية . ومهما يكن من امر فان مبادىء الحزب وتعلياته ومواقفه الفعلية ، تنفي أي التباس او غموض حول موقفه العلمي من التراث وانتفاء النظرة السلفية الرجعية ، كما توهم بعضهم من خلال عبارات وتعابير مجتزأة او

مجردة عن السياق العام والاساسي لفكر الحزب . إن تقدم الأمة العربية وارتفاعها لمستوى ماضيها المجيد أي الراقي المتقدم يومذاك لن يتأتى الا باتباعها منطق هذا العصر وأساليبه ووسائله . فالرقي بمعناه المطلق موجود منذ اقدم الازمنة ولكنه نسبي في الزمان والمكان وفي الجوهر والمظهر كما ان لكل عصر حكمه ومستواه .

والرسالة العربية في شعار الحزب ومبادئه لا تعني رسالة دينية معينة ، او نهضة حضارية ظهرت في احدى حقب التاريخ ونريد بعثها او احياءها والعمل بها ، وان كان لهذا التراث الروحي والثقافي بعض الصلة والتأثير في اعطاء الرسالة ملامحها وسماتها .

أما ما ظهر من نهضات فكرية وروحية ومادية في المراحل المتعاقبة من التاريخ العربي منذ اقدم العصور حتى الآن فتبرز كدليل على حيوية الأمة العربية وقدرتها على التجدد والابداع الحضاري ، وتفيد في تكوين الحوافز المشجعة على متابعة النضال والعطاء . ومن ثم الارتفاع الى مستوى الرسالة .

على انه لا بد من التنويه هنا بان الماضي يبقى في اهميته وتأثيره ، دون الحاضر الذي نعيشه ونعاني منه . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان الاحداث السلبية والايجابية والوقائع المؤلمة ،

والسارة في حياة الانسان تكون اشد وقعاً وتأثيراً في نفسه كلما كانت قريبة منه في الزمان والمكان ، ولعلنا نستطيع القول من

باب التشبيه ، ان الاحداث كالنار كلما اقتربت منها شعرت بحرارتها . وكلما ابتعدت عنها تضاءل تأثيرها . على ان النار القوية الشديدة كالاحداث القوية البارزة ، تغدو مسافة التأثير فيها ابعد واشد ، ولكن هذا يبقى مجرد تشبيه ، ولا يغطي الفكرة كلها ، اذ يظل هنالك عامل اساسي وهام وهو ان طريقة فهم الماضي ، هي التي تحدد مدى الافادة منه . ويذكر على سبيل المثال ان الاسلام اذا فهم على انه عودة الى تقليد الاجداد واقتفاء اثرهم بتفاصيل سلوكهم واعمالهم ، فهذا يقود الى منطق رجعي سلفي ضار ، في حين انه اذا فهم على انه ثورة وتمرد على القديم وحافل بمناقب الصمود والتضحية والوفاء والصدق والرجولة وما الى غير ذلك من الفضائل ، لكان في هذا ما يعزز بواعث النضال ودوافعه التي لا بد منها لبلوغ الاهداف السامية العظيمة المعبرة عن مستوى الرسالة .

٥ ـ خالدة متجددة

بما ان الوضوح التام لفكرة الرسالة يتوقف الى حد كبير على التحديد الواضح لمعاني الالفاظ المتصلة بها والتي قيلت كوصف لها ، فقد اصبح لزاماً علينا ان نبدأ بتحديد معانيها اللغوية ومضامينها الحقيقية التي ارادها حزب البعث العربي الاشتراكي من خلال بعض النصوص التي وردت فيها هذه الالفاظ :

لقد ورد في المبدأ الثالث من دستور الحزب ان : « الأمة

العربية ذات رسالة خالدة تظهر باشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ » ويتساءل الرفيق المؤسس بقوله: « هل الرسالة شيء ينتهي في وقت ما أم انها تتجدد وتتكامل مع الحياة . . . وما معنى خلود الرسالة ، هل هو جمودها أي انها تحوي اشياء لا تزيد ولا تنقص ، أم يعني انها فوق الاشياء وانها نزوع ومهمة؟ »[٢٠] وبعد: فما هي المعاني المقصودة لالفاظ الخلود والتجدد والتكامل ؟ ان لفظ الخالدة من خلد يخلد خلوداً أي دام دواماً وديمومة بمعنى ثبت وامتد واستمر . وفي لسان العرب ان الرجل الذي أسن ولم يشب يقال عنه رجل مخلد . كما يقال للصخور والحجارة خوالد لطول بقائها . وهذا المعنى النسبي للخلود دليل على مرونة اللغة العربية وعدم تحجرها .

وفي الفلسفة خلود النفس معناه بقاؤها بعد فناء الجسد[٢١] ويقول الفيلسوف جورج سانتا يانا: « ابناؤنا هم خلودنا والاسرة هي السبيل لدوام الانسانية »[٢٢] ولو اننا امعنا النظر فيما يتناقله الابناء عن الآباء والاجداد من افكار وتقاليد وعادات لتبين لنا التواصل بما يعني الاستمرارية والخلود ، ولكن ببعد آخر هو التجدد والتطور في هذا الذي ترثه الاجيال الحاضرة عن الاجيال الغابرة وعما سترثه الأجيال القادمة . ومهما يكن من أمر فان لفظ الخالدة التي نعطيها للرسالة لا تعني الأبدية والسرمدية والديمومة اللا نهائية ، فهذه نظرة ستاتيكية جامدة سكونيةوحرفية للالفاظ . ولا شأن لنا بمعانيها الدينية والفلسفية الميتافيزيقية . وصفة الخلود مرتبطة بوجود الأمة العربية

وبقائها ، وهذه الصفة هنا نسبية ولا تحمل معنى المطلق ، لنأخذ ملحمة العرب المسلمين البطولية في صدر الاسلام فهل يمكن للتاريخ البشري بعامة وللتاريخ العربي بخاصة ان ينسى سيرة الرسول العربي والخلفاء الراشدين وكل الأبطال الأوائل كابن الوليد وابو عبيدة الجراح وابن العاص وقتيبة وابن نصير وغيرهم . ولو صعدنا مع التاريخ العربي لأمكننا القول ايضاً :

هل يمكن للعرب وللعالم المتحضر ان ينسى اثار المفكرين والعلماء العرب امثال الرازي وابن سيناء وابن الهيثم وابن خلدون وابن رشد والمتنبي وابو العلاء المعري وعشرات من امثال هؤلاء الذين ما زلنا نعجب بآثارهم وافكارهم ونفيد منها الى يومنا هذا ، رغم مرور القرون ومئات السنين ؟ هل يمكن للبشرية ان تنسى ما قدمه لخيرها وتطورها اولئك العباقرة من العلماء الذين اخترعوا او اكتشفوا الكهرباء والراديو والطائرة والتلفزيون والذرة ـ ولقاحات الامراض الفتاكة وغيرها . الا يدخل نتاج هؤلاء وآثارهم نطاق الشمول والخلود ، ويرفع من مستوى اممهم ؟ هكذا يتبيّن لنا ان خلود الانسان بقوة افكاره وآثاره العلمية والأدبية والفنية وبمدى تأثيرها وفائدتها للآخرين وانتقالها للأجيال المتعاقبة.فالانسان العادي الخامل يعيش حياته اسيراً ـ لمصالحه وحاجاته ويقصر جهوده لضمان عيشه وراحته فلا يذكره بعد موته سوى اهله واسرته، في حين ان الانسان العبقري المبدع يخلد اسمه بآثاره وافكاره العلمية النافعة ، وبهذا المعنى فإنه لا يموت بعد ان يموت . ولعل ما ورد في الآية

الكريمة يدعم هذا المنطق « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون »(سورة آل عمران آية ١٦٩) .

والرسالة الخالدة كما ذكرنا لا تعني ان ثمة عقيدة دينية سماوية معينة ، او نظرية فكرية محددة ، او اهدافا ومبادىء ثابتة ظهرت بظهور الاسلام او قبله ونريد بعثها او احياءها والأخذ بها ، وانما هي نزوع الأمة العربية ونضالها في سبيل التقدم والرقي والابداع الحضاري ، في مراحل التاريخ المتعاقبة . ولقد تجسدت حيوية الأمة وقدرتها على الابداع والاشعاع وخدمة الانسانية في حضارات وادي النيل والرافدين والهلال الخصيب واليمن ، وفي عبقرية اللغة العربية وظهور الاسلام ، وما اعقبه من توحيد العرب وتعزيز لغتهم وثقافتهم ، وفي نضالهم الراهن ضد الامبريالية والصهيونية ، وفي سبيل الوحدة والتحرر والتقدم .

وهكذا فالخلود هو قدرة النضال والابداع والتطور الكامنة او الظاهرة في الأمة ، وهذه القدرة مستمرة باستمرارها وخالدة بخلودها وعندما يتاح لها الظهور في الاوضاع الصحية السليمة ، تنطلق لتعبر عن نفسها بحضارة راقية ، وبالاسهام في تعزيز قيم الحق والخير والعدل والمحبة والمساواة والاخاء بين البشر. وهذه القيم في حد ذاتها ، تتضمن معنى الخلود في جوهرها ومعانيها المطلقة ، بغض النظر عما يطرأ على بعضها من مظاهر التطور التي تفصح بدورها عن جوانب التجدد والتكامل فيها .

ومن الجدير بالانتباه ان الرسالة لا توصف بالخلود فحسب بل توصف ايضاً بالتجدد والتكامل . فالتجديد هو الأخذ باساليب جديدة في نواحي الحياة الفكرية والعلمية ، اما التكامل فهو اتمام ما كان ناقصاً واستكماله باتجاه التطور والانسجام والترابط وهو عند الفيلسوف سبنسر يعني الانتقال من مرحلة الغموض الى الوضوح ، ومن التشتت الى الائتلاف ، بينما يعني في الاقتصاد الجمع بين صناعات مختلفة تكمل بعضها بعضاً ، وتتعاون في الوصول الى غرض واحد . (*)

وهكذا فان هذين اللفظين يحملان معنى التبدل والتطور وينفيان صفة الخلود السكوني الجامد عن الرسالة .

وبما ان صفات الخلود والتجدد والتكامل ، تتجلى في مراحل التاريخ المتعاقبة فاننا نحاول استقصاء مضاسينها ومعانيها العامة من خلال الامثلة التالية : انطلاقاً من اعتبار « الانسانية مجموع متضامن في مصلحته مشترك في قيمه وحضارته » (المبدأ الثالث من دستور الحزب) فان كل ما وصلت اليه الشعوب والأمم من تقدم حضاري هو محصلة لجهودها المتراكمة المتواصلة ، مع الملاحظة بان ثمة أُمماً اسهمت بقسط اوفر من سواها . والأمة العربية تأتي في المقدمة بهذه المساهمة ، حيث ظهرت في الوطن العربي ، ومنذ آلاف

(*) راجع الصحاح في اللغة والعلوم والمعاجم الأخرى .

السنين ، حضارات قديمة عريقة عرفت في التاريخ اصطلاحاً بحضارات السومريين والبابليين والاشوريين والفراعنة والفينيقيين والقرطاجيين والآراميين والمعنيين والسبئيين والحميريين والانباط والتدمريين والحضريين ، ومن ثم ظهور الاسلام وما اعقبه من وحدة العقيدة والثقافة ، على امتداد الوطن العربي كله ، وما ظهر بعد ذلك من تقدم ونبوغ في شتى ميادين العلم والأدب والفلسفة . وهنا قد يرد الى الذهن السؤال التالي : ما شأن الأمة العربية الراهنة بتلك الحضارات القديمة ، وما هو وجه الصلة والترابط بينها وبين تلك الشعوب التي ابدعتها . ؟

إذا استبعدنا الناحية العرقية ومسألة الحسب والنسب في تكوين الأمم لأنهما باطلان علمياً ، ثم نظرنا الى القضية من الزاوية الحضارية التي تعني ان كل تقدم حضاري في أي زمان ومكان يتصل بسلسلة من الحلقات المتداخلة المتفاعلة ، وان الاختلاط وتبادل التأثر والتأثير بين الشعوب امر طبيعي لامكننا القول ان الحضارات التي عاشت في الوطن العربي لم تكن معزولة عن بعضها ، وان اللاحق منها تأثر بما سبقه ورافقه رغم وجود نوع من الخصوصية . وبهذا الصدد يقول كروزيه : « هنالك مدنيتان من اضخم المدنيات التي ظهرت في التاريخ القديم : المدنية المصرية ومدنية بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، واستمرتا اكثر من ثلاثة آلاف سنة » . (٢٣)

ومما تقدم نخرج بنتيجة مؤداها ان العرب المعاصرين ، من الوجهة الحضارية هم خلفاء الشعوب التي سكنت المنطقة العربية منذ آلاف السنين ، ولا يلغي هذه الحقيقة التاريخية حدوث الهجرات البشرية عن طريق الفتح او التسلل أو التجارة ولا تلك الحالات النادرة التي طغى فيها المهاجرون الجدد والغزاة على سكان البلاد الاصليين كما حدث في الولايات المتحدة الامريكية .

ان حضارة العرب وتقاليدهم ووحدتهم الثقافية في هذا العصر تمثل آخر مراحل التطور في حياة السكان الذين عاشوا بالماضي في هذه الارض العربية ، مع الاخذ بعين الاعتبار تأثير الحضارات الانسانية ككل ، كما ان واقع الجيل العربي الراهن ، بأخلاقه ومشاعره وعاداته ومفاهيمه ، هو اقرب الى الجيل الذي سبقه ، وهذا مرتبط ايضاً بمن سبقه ، وهكذا الى نهاية السلسلة التي يمكن ان تعود بنا الى آلاف السنين ، وبذلك لا يمكن ان ننظر الى جيل معين وفي فترة زمنية معنية ، على انه منقطع الصلة والجذور عن الاجيال التي سبقته ، او انه عديم الترابط والتأثير بالأجيال التي اعقبته . وهذا التواصل التاريخي يسمح لنا بالقول ان الأمة العربية الحاضرة هي امتداد طبيعي حضاري تطوري لتلك الشعوب الغابرة رغم ان الزمن البعيد وما حصل فيه من تطور هائل جعل لغة القدماء السالفين غير مستخدمة عند خلفائهم الحاليين . أنا امتداد لاجدادي ولكني لست اياهم واختلف عنهم في همومي ومشاعري وتفكيري

وطموحاتي . ان الأمة العربية بتاريخها وحضارتها ووجودها سياق متصل او كالنهر الكبير المستمر في جريانه المتغير في مياهه ، «فلا نستطيع ان نسبح في مائه مرتين». ومن هنا فان التاريخ لا يعيد نفسه رغم المظاهر المتشابهة في احداثه ، ولكنه يترك آثاره وبصماته على واقعنا ويمكننا الافادة من دروسه وتجاربه ، اذا ما استوعبناها وفهمناها فهماً علمياً حياً ، وانني كعربي وافهم تاريخ الوطن العربي كسلسلة متصلة الحلقات ، اشعر بالاعتزاز والفخر عندما اشاهد آثار بابل واقرأ تشريع حمورابي او عندما ازور ـ الاهرامات في مصر وقرطاجة في تونس وآثار تدمر في سورية . . . على انه لو صعدنا مع التاريخ لنصل الى الحقبة الزمنية التي ظهر فيها الاسلام لأخذت المسألة طابعاً جديداً في غاية الوضوح والتمييز . ذلك « لأن الاسلام في حقيقته وجوهره حركة عربية » انه عربي بنبيه وموطنه ولغته وابطاله الأوائل ، وبتعزيزه القيم العربية حيث قال الرسول : «جئت لأتمم مكارم الاخلاق» ثم ان الاسلام بتوحيده العرب وربطه سكان الوطن العربي وحضاراته القديمة برابطة الدين واللغة وبتفجير طاقاتهم ، وبصيانته لوحدتهم الروحية والثقافية ، في عهود الضعف والانحطاط والتمزق السياسي ، وفي ظل الغزو الاجنبي المغولي والفارسي والتركي ثم الاستعمار الغربي الجديد ، انه بذلك كله قد شكل بحق اضخم قطعة واخصبها في التاريخ العربي .

ولئن تجلت عبقرية الأمة العربية ورسالتها وقدرتها على

التجدد والانبعاث، في حضارات الوطن ا لعربي القديمة وفي لغتها المرنة الواسعة المتطورة وفي ظهور الاسلام بمراميه وقيمه الانسانية ، وما اعقبه من نمو الحضارة العربية الاسلامية ، فانها اليوم تتجلى بظهور الحركة العربية الثورية وفي طليعتها حزب البعث العربي الاشتراكي ، وبما تقدمه من تضحيات في سبيل الوحدة والتحرر والقضاء على التخلف ومقارعة الامبريالية والصهيونية والرجعية . وبعبارة اخرى ، ان الرسالة في هذه المرحلة تعني النضال بالدرجة الاولى ، وما يترتب عليه من تكوين وخلق الصفات والاخلاق الثورية وتوفير الشروط الصحية اللازمة لتفتح ونمو المواهب والطاقات المهدورة بسبب التجزئة والتخلف ، ولكن الرسالة بعد تحقيق المجتمع الاشتراكي الديمقراطي الموحد ، تصبح بالدرجة الاولى اسهاماً فعالاً في الابداع والاختراع ، وتعزيز الحضارة الانسانية وتجديد القيم البشرية . وهكذا تأخذ الرسالة اشكالاً متعددة متجددة وفق المراحل المختلفة من حياة الأمة . ولكن الأمة الحية هي التي تحيا الآن والتي ينفسح امامها مجال الحياة للمستقبل وانها الأمة التي تخدم ماضيها باستخدامها إياه لا باستسلامها له .

والأمة الحية تنمو وتتكامل ، ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها ويكون مستقبلها امامها لاوراءها .[٢٤] والحق ان الماضي الغابر اقل تأثيراً في النفس من الحاضر لأن حوافز التراث والامجاد اقل اثارة للمواطن العربي من معاناته الراهنة لقضية حية معاصرة كقضية فلسطين ، حيث يتجسد فيها الظلم

الامبريالي الصهيوني العنصري للعرب ، واهانة كرامتهم واستغلالهم ، الى جانب تجسيدها للحاجة الماسة الى الوحدة بمضمونها الديمقراطي الاشتراكي .

إن قولنا بان الأمم كالأفراد تختلف عن بعضها بالقدرة على العطاء والتقدم وخدمة الاهداف الانسانية ، يجب ألاّ يفهم بنظرة سلبية تؤول الى الشعور بوجود امم موهوبة او مختارة او متميزة ، واخرى على النقيض منها .

ان قولنا بأن الأمة العربية تتسم بخصب الحيوية والابداع ، وان لها ماضياً تليداً مجيداً ، لا يعني اكثر من اقامة الدليل على وجود القابلية والاستعداد للتجدد والانبعاث . كما ان هذا لا يعني ان الأمم التي لا حضارة عريقة لها ، غير جديرة ولا قادرة على النهوض والابداع ، بل انها قادرة على ذلك اذا ما توفرت لها الشروط الموضوعية والذاتية اللازمة . ولعلنا نستطيع القول من باب التشبيه ، ان الأمة المتطورة بلا رسالة كشجرة بلا ثمر او كالوردة بلا رائحة عطرة ، انها جميلة حية ولكنها لا تنفع الآخرين بطيب الثمر والرائحة .

قد يشب احد الاشخاص وهو يعتقد في قرارة نفسه بانه سيصبح عالماً كبيراً او مخترعاً مرموقاً ، دون ان يكون لهذا الاعتقاد ما يبرره سوى الطموح الشخصي ، او الثقة المتناهية في النفس ، ولا شك ان هذه الثقة تجعل المصاعب التي تعترض سبيله عادية او مقبولة لديه ، فاذا حقق بالفعل اختراعاً مفيداً

لأمته وللبشرية فقد ادى رسالة لها معنى السمو والخلود ، وهنا يمكن القول ان عبقرية الأمة ورسالتها ، بل وقوتها تتحقق الى حد كبير وبأوضح ما يكون على أيدي الفئة النيرة المبدعة الخلاقة من ابنائها . لأن قيمة الأمة وقوتها ومكانتها لا تقاس بعدد افرادها ، بل بعدد علمائها وبمدى قدرتها على التقدم وخدمة الانسانية .

على انه لا بد من التنويه بان ما يبدعه علماؤها ومبدعوها مرتبط بالبيئة التي عاشوا فيها ، اي انهم مدينون الى أمتهم بتقاليدها وتراثها وبآلامها وآمالها والى التراث الانساني العام ، مثلما هم مدينون الى المواهب الخاصة التي تميزوا بها . وان ازدياد نسبة هؤلاء في الأمة ، دليل على مستواها الفكري والاجتماعي المتقدم ، وعلى الامكانات والشروط الموضوعية المتوفرة لديها لتشجيع الانتاج والبحث العلمي .

واخيراً وليس آخراً ، فان قولنا بقدرة الأمة العربية على التجدد والتكامل والابداع عند الحديث عن رسالتها ، بالرغم من واقعها المجزأ المتخلف ، يجب ألاّ يفهم فهماً غيبياً ولا نظرياً او حرفياً جامداً ، ذلك لأن قولنا هذا ليس نظرية مبنية على الحدس والالهام ، ولا على الرغبة الذاتية ، وانما هو نوع من الثقة او الايمان الذي يستهدف المستقبل قبل كل شيء ، ويعني في جوهره ما يجب ان يكون . ولنفرض جدلاً ان ايمان المناضل برسالةامته وبأنها تظهر باشكال متجددة متكاملة عبر مراحل التاريخ ، هو ايمان ذاتي وليس له من الادلة العلمية

والتاريخية ما يبرره ، فما هو الضرر من وجوده او غرسه في نفسه اذ ما شكل عامــلاً قوياً في اندفاعـــه نحـــو المزيد من الثقـــة والاطمئنان ومن القدرة على التضحية والبذل ؟ وهـل هنـالك شك في ان من يسعى لمثل اعلى بروح الثقة والتفـاؤ ل وتحـت شعار لا مستحيل مع الجد والمثابرة ، يكون اوفر حظاً بالنجاح والابداع من ذاك الذي يعمل بروح معنـوية ضعيفـة ويفتقـر نشاطه الى حرارة الايمان والثقة بالنفس ؟ .

---

١ ـ نضال البعث عبر مؤتمراته القـومية جـ ٤ ط ا ص ٥١ دار الطليعـة بـيروت ١٩٧١ .

٢ ـ ميشيل عفلق ـ البعث والتراث ص ٨٥ ـ دار الحرية ـ بغداد تموز ١٩٧٦ .

٣ ـ الموسوعة الفلسفية ـ جماعة من العلماء السوفييت .

٤ ـ كروزيه ـ تاريخ الحضارات العام جـ ١ ص ١٨ ترجمة فريد م . داغر منشورات عويدات بيروت ١٩٦٤ .

٥ ـ د . مصطفى مندور ـ اللغة والحضارة ص ٢٩ منشأه المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤ .

٦ ـ مجلة الدراسات العربية ايار ١٩٧٧ ص ٤٨ مقال للدكتور ناصيف نصار .

٧ ـ ميشيل عفلق ـ في سبيل البعث ص ٤٣ .

٨ ـ دستور حزب البعث العربي الاشتراكي الذي اقره المؤتمر التاسيسي عام ١٩٤٧ .

٩ ـ نضال البعث عبر مؤتمراته القومية ص ١٨٩ .

١٠ ـ ميشيل عفلق ـ في سبيل البعث ص ١١٢ راجع ايضا قسم الملاحق .

١١ ـ المصدر السابق ص ٣٢٧ ، ٣٠٣ .

١٢ ـ نضال البعث عبر مؤتمراته القومية ص ٩٨ .

١٣ ـ ميشيل عفلق . معركة المصير الواحد ص ٤١ .

١٤ ـ ميشيل عفلق ـ في سبيل البعث ص ١٥٧ .

١٥ ـ المصدر السابق ص ١٢٠ .

١٦ ـ المصدر السابق ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

١٧ ـ المصدر السابق ص ٧١ .

١٨ ـ المصدر السابق ص ١٠٩ .

١٩ ـ المصدر السابق ص ٧٧ .

٢٠ ـ المصدر السابق ص ١٤٢ راجع ايضا قسم الملاحق .

٢١ ـ مراد وهبة ـ المعجم الفلسفي .

٢٢ ـ ول ديورانت ـ قصة الفلسفة ص ٦١٠ ترجمة فتح الله محمد ـ مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٥ .

٢٣ ـ كروزيه ـ تاريخ الحضارات العام جـ ١ ص ٢٠ .

٢٤ ـ ميشيل عفلق ـ في سبيل البعث ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

الأستاذ

شبلي العيسمي

بغداد 1980

